وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض
الواجد الثقافي الأصيل (*)

في هذه الحقبة من الزمن حيث تمر أمتنا بمرحلة التطلع لما يجب أن يكون.. وتتباين الآراء في أمر اصطحاب معطيات الماضي في هذه الرحلة.. أو التخلي عنها ـ كما يريد لنا الآخرون ـ في هذه المرحلة التي نقف فيها على مفترق الطرق.. تبدو الحاجة ملحة إلى تحديد الوجود الذي تريده الأمة.. ونبادر إلى القول بأن الوجود العلمي بالمعنى التقني والوجود المادي فيما لميادين القتال فيه حاجة: قد يكونان غير متوافرين للأمة بالمعنى الشامل المطلوب.. ولكنها محاولات وهمهمات.. والإعداد واجب في كل الميادين ـ لكن الذي تملكه الأمة، ولا غنى لأي نوع من أنواع الوجود عنه ـ والثقافة ليست المعرفة وحدها، إنما المعرفة عنصر من عناصر الثقافة ـ هو ذلك الوجود الثقافي بمعناه الشامل العميق عقيدة وفكراً وسلوكاً؛ بحيث تكون ممارسة الحياة على صعيد الفرد والجماعة صورة ناطقة بهذا الوجود.

ولنا من مبادئنا في كتاب الله وسنة رسوله، والتاريخ الذي يمثل واقعية هذه المبادئ وقدرتها على العطاء في جميع جوانب الحياة، ومن الرجال الذين صنعوا هذا التاريخ في ميادين الحرب والسلم، وفي ميادين العلم والتشريع، وفي ميادين الأخلاق والسلوك، بالإضافة إلى التجربة

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان التاسع والعاشر، السنة السابعة عشرة، شوال ١٣٩٦هـ، كانون الأول والثاني ١٩٧٦-١٩٧٧م.

والتطبيق . . أدلة هي المصابيح في ليلنا الداجي والمعالم النيرة على درب الرحلة الطويلة .

إن الوجود الثقافي الذي يمثل الصياغة الحقيقية لفكر الأمة وتصورها ومنطلقات سلوكها . . جدير أن نوليه كثيراً من الاهتمام في مجال التربية والإعلام وكل ميادين المعرفة والسلوك . لأن الأمة التي لا تعي ما تريد : لا تستطيع أن تخطوا الخطوة الحازمة الجادة التي تكون خطوة على الطريق .

لقد أتى على هذه الأمة حين من الدهر سقط فيه عدد من أبنائها ، ومن بيدهم مقاليد أمورها : ضحية التنكر لمقومات وجودها ومنابع ثقافتها . . ثم تطور الأمر إلى ما يدعو إلى التفاؤل عندما بدأت موجة العقوق تنحسر بعض الشيء ، وأصبحت ميادين الاتصال بنسغ حضارتنا مأهولة بأبنائنا ، الأمر الذي كشف عوار أولئك المفلسين الذين لا كانوا مع الحجلة ، ولا كانوا مع الغراب . . فلا هم من الأمة في أمجادها وتاريخها وبطولاتها . . ولا هم عند الأعداء في الوزن الذي كانوا يتوهمون ، وإنما كانوا عندهم بمنزلة المتاع تمتد إليه يد النظافة والعناية طالما كانت الحاجة قائمة ، فإذا اندفعت الحاجة فقيمته غير ذات موضوع . . وكل يوم يطالعك على هذا الصعيد جديد . . ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

إن الأمة مدعوة اليوم إلى هذا الوجود الثقافي الذي نعنيه علماً ومعرفة ، تشريعاً وتنظيماً ، أخلاقاً وسلوكاً وتطلعاً للأمثلة التي تحتذى ، والنماذج التي تمثل القدوة في تاريخنا من الرجال والنساء . . فإذا عادت عودتها إلى هذا

الوجود. . وربطت حبلها بالقرآن، فقد أخذت بمجامع القوة، وجمعت عناصر الحياة من أطرافها. . وهي ـ بحمد الله ـ لا ينقصها فيما وراء ذلك أي عنصر يتعلق بالثروة أو الطاقة البشرية أو الموقع الاستراتيجي، فعندما يتوافر لها العودة إلى الوجود الثقافي الحقيقي: تستطيع أن توظف ذلك كله في مكانه الطبيعي، وتملي ما تريد في علاقتها مع الآخرين.

ولقد ترانا نعقد المؤتمرات ونقول فيها كثيراً، ونقيم أسابيع العلم، ونقدم فيها كثيراً. . وكل ذلك بوادر تكشف عن شيء من مخبوءات ثروتنا العريضة في كل الميادين. . أوليس هذا هو الحجة القائمة والمؤشر الذي يصرخ بنا أن الطريق تبدأ من هنا. . من الوقوف على المورد الأول بوعي يتجرد له أبناؤنا في جميع التخصصات واثقين من أنفسهم. . موقنين بأن انتماءهم إلى هذه الأمة يعني وجودهم الأصيل. . وأن حيناً من الدهر خلط بين الحق والباطل. . وأقام على الأعين غشاوة صنعها أعداء الأمة وذيولهم بين ظهرانينا، يجب أن يكون حافزاً للانطلاقة الجادة التي لا تحتمل التخاذل ولا التهاون.

وعندها يكون الحكم صحيحاً على كل أولئك الذين هونوا من شأن هذه الأمة في تراثها ومقومات وجودها. . وجعلوا من شعارهم في الإصلاح دعوة إلى التخلي عن كل ما يمت إلى الأمة بصلة، والتوجه شطر الذين بهروهم بسحرهم وأضوائهم أو صادف ما يقولونه عن الأمة ـ وهم أعداؤها على مدى التاريخ ـ هوى في أنفسهم، ورغبة جامحة في أن يفوزوا برضى أولئك الأعداء.

وعندها أيضاً نكون على مثل الرواسي من الجبال في تفسير تاريخنا، ووضع كل واقعة موضعها من خلال نظرتنا إلى الرسالة التي يفترض أن التاريخ تطبيق لها في جميع جوانب الحياة، حيث إن القاعدة التي انطلق منها هذا التاريخ: هي العقيدة التي جاء بها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحياً من عند الله، وبناة هذا التاريخ الحقيقيون: هم أولئكم الرجال الذين آمنوا بتلك العقيدة وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وأضاء التصور الإسلامي عقولهم، حتى أشرق ذلك كله على تصرفاتهم وسلوكهم، فكان العطاء بأوسع مدلولاته شعارهم تحت راية تلك الرسالة المحمدية وفي كل الميادين، وكانت حصيلة ذلك: الحضارةَ التي لا يجهلها المنصفون.

وقل مثل ذلك عن موقفنا من العربية لغة القرآن.. ما هو دورها في بنيتنا الثقافية في الماضي؟ وما هي المكانة التي يجب أن تأخذها عملياً على صعيد الحقيقة اليوم؟ وما هي الصورة الحقيقية لأولئك المتهاونين في شأنها أو الداعين لمجافاتها؟ وكيف أن هذه الصورة في أبسط ملامحها دليل لا يقتحمه دليل على أن التهاون ـ بله الجفوة ـ تقطيع لكل أواصر الصلة بين الأجيال التي هي أمانة في أعناقنا، والتي هي مناط أمل الأمة، وبين تراثنا وموارد ثقافتنا ووجودنا.. الأمر الذي يجعل هذه الأجيال ـ والمعاذ الله من ذلك ـ لا في خدمة الأمة ومطامحها الجذرية المصيرية، بل في خدمة الآخرين والفكر المناوئ.

ولا تسل عن موقفنا من التراث الذي يمثل المرتكزات الفكرية والعملية ومقومات الأمة، كما يراها الإسلام، وكما جاهد في سبيلها الأولون..

فكل أولئك وكثير مما لا يتسع المقام لذكره: مرتبط أيما ارتباط بنصاعة وجودنا الثقافي الذي تسيرنا اللمحة العابرة إليه في هذه الكلمات، وحين تتفتح البصائر، وتتجه الاهتمامات وجهتها الصائبة المحددة في هذه السبيل.. يمكن للأمة أن تكون من وراء روادها الأمناء في إعطاء القيم الحقيقية لا الموهومة ولا الملبسة: للواقع الذي تعيشه في أرجاء العالم الإسلامي هنا وهناك.. وتستبين نصح النصحة من أبنائها في مدى الانقطاع أو الاتصال بينها وبين تلك المنابع التي تكوِّن وجودها الثقافي، وتضعها على أرض الذاتية والأصالة.. دون إغلاق أي باب من أبواب الإفادة من العلوم التقنية المادية البحتة التي سبقنا بها الآخرون أشواطاً بعيدة.

إن النذر التي تقرع الأبواب بجدية ودون إمهال، هي التي تحملنا على التركيز المستمر على تلمس كل السبل التي تضمن وجودنا الثقافي، بالمعنى الموضوعي الذي يعطي كل قضية ما تستحقه من الاهتمام حسب موقعها من هذا الوجود.. سلباً أو إيجاباً.. والتي ندرك من خلالها ما يتهدد هذه الأمة من أخطار على أجيالها التي نأمل أن تحمل الأمانة بقوة، إن هي جنحت أو جنح بها عن تلك السبيل المأمونة التي قاد خطاها محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وسار على هدي تلك الخطى من حملوا اللواء بأمانة في سبيل الله.

وحينما تنشر الحقيقة أعلامها متميزة عن الأوهام والخيالات.. نستطيع أن ندرك بعمق أكثر، ووعي أوفر، أبعاد تفريق القرآن الكريم بين الحق

والباطل في مواجهة الواقع العالمي على الصعيد الجغرافي والبشري، من داخل النفوس، وفي مواجهة الآخرين يومذاك..

كما نلمس بكل وسائل المعرفة ـ ونحن في موقف المواجهة بكل ألوانها وصورها ـ أي عطاء رحب رحابة الإسلام، يزودنا به الفرقان بعد الحديث عن العقيدة ومظاهر قدرة الله وآياته في الآفاق، في حوار مع أولئك العمي عن طريق الهدى، ذلكم قوله تعالى: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**﴾.

نعم. «فأما الزبد فيذهب جفاءٌ» وطفوه على السطح لا يغيِّر من حقيقته شيئاً، «وأما ما يَنْفَعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ..» يبعث فيها الحياة والنماء.. فتهتز بالخير وتربو بالعطاء.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دعوة على بصيرة (*)

على بركة الله ورجاء المزيد من توفيقه: تفتتح المجلة عامها الجديد بشهر ربيع الأول، الشهر الذي كان من خصائصه التي ميزه الله بها أن جعله شهر مولد رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وهذا يحملنا ـ ونحن في ظلال رحلة أمتنا عبر تاريخ خلف أربعة عشر قرناً أشفت على التمام ـ أن نستذكر المهمة الأولى التي كان يضطلع بها سيد العالمين في أداء رسالته للناس عندما كان يقول لهم: [قولوا لا إله إلا الله تفلحوا].

إنها مهمة الدعوة.. الدعوة إلى الله على بصيرة، والدعوة إلى الله على نور كتاب الله الذي أنزل الله عليه شفاء ورحمة للمؤمنين.. فكانت هذه الدعوة اليد الحانية التي حولت الإنسانية من حال إلى حال، وسلكت بالعرب مسلك القيادة في العالمين، على هدي منهج رباني لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من لمحات الفضيلة، وكل ما فيه تحقيق إنسانية الإنسان وإسعاده في الدنيا والآخرة: لا ازدان بها واحتواها. وهي دعوة إلى الإسلام كما هو في منابعه ومصادره، كما هو في صفائه وشموله، كما هو في حقيقته كما أراد الله وأثبت واقع التطبيق.

ولسنا بسبيل أن يأخذنا السرد التاريخي لأمور تتعلق بأمر هذه الدعوة من أجل التاريخ وكفى، ولكن بسبيل أن نستذكر وقد لفتنا غمرات التخلف

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الأول، السنة الثامنة عشرة، ربيع الأول ١٣٩٧هـ، شباط ١٩٧٧م.

ردحاً من الزمن، وتباشير انطلاقة واعية تحاول أن تشق جيوب الظلام: أن نستذكر صنيع الداعية الأول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ. ذلك الصنيع الذي لا تزيده الأيام إلا جدة وصفاء، لا تمر بالأمة نعمة أو نقمة إلا بدت الحاجة ملحة أكثر وأكثر إلى حسن تمثله وترسم خطاه دون تحرف أو ازورار.

إن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الداعي إلى الله بإذنه على بصيرة ـ كان على يقين أرسخ من الجبال الرواسي بما يدعو إليه؛ فهو يعرف ما يريد ومؤمن بما يريد، والغاية من وراء الدعوة ماثلة أمام ناظريه منذ اللحظة الأولى بعد أن أوحي إليه، فخطا الخطوة الأولى على تلك الطريق.

وهو ـ فداه أبي وأمي ـ عالم كل العلم ـ بما أشرق قلبه من ضياء الوحي، وبما أهَّله الله لحمل الرسالة ـ بطبيعة الأرض التي يتحرك عليها، وحنايا النفوس التي يدعوها إلى الله، فكان واقعياً كل الواقعية، في استجلاء مكامن الفطرة، ومخاطبة العقول والقلوب، والاستعانة بثمرات تجارب الماضين، والإفادة من كل الدروس والعبر التي يمكن أن تؤثر في أولئك الذين يريد حملهم على الجادة، وإنقاذهم من الوهدة، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولم يقتصر ذلك كله على الجزيرة العربية بحدودها، ولكن التبليغ أخذ طابع العالمية بما أرسل من رسل حملوا كتبه إلى هنا وهناك من أرجاء المعمورة عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾. ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً**﴾.

ولم تكن المهمة سهلة ميسورة بالقدر الذي يتصوره بعضهم؛ فإزالة الركام عن العقول والقلوب، وتخطي الموروثات الآخذة بخناق الناس يومئذ: من أجل بناء الإنسان مجدداً هو المهمة العسيرة. إن أي بناء مادي في المجتمع قد يكون أقل صعوبة من بناء الإنسان خصوصاً عندما يكون هناك ستار من المتناقضات، وحُجُبٌ هي نسيج الخرافة والتقليد الأعمى، وأوهام العزة والفخار.

وبقدر ما نكون على تصور صحيح لهذه النقطة: ندرك أي منجزات حققها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما بنى القاعدة الصلبة التي أخذت على عاتقها حمل الراية الإنسانية لكل بني الإنسان، حين أعلنت كلمة التوحيد، وبذلت في سبيلها كل شيء، وواجهت الحياة بشرعة العليم الخبير، ووضعت بمعطيات العقول والقلوب والتضحيات أسس الحضارة الإسلامية الماجدة والحمد لله.

وهذا الذي فعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبنى عليه تلك القاعدة المباركة. كان عماده إلى جانب كل الأسباب آنفة الذكر: حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، فالدعوة دعوته، والعمل في سبيله، والمبتغى مرضاته [**إن لم يكن بك سخط عليَّ فلا أبالي**].

ومن أجل هذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ الصورة الناطقة العملية لما يدعو إليه؛ فهي دعوة بالقول والتبليغ، ودعوة بحسن الأسوة وفضائل السلوك إلى إنسانية في التوجيه، وحزم في القيادة، وترفع عن كل ما يقع به

زعماء التراب والشهوة، لأنه رسول الله ومجتباه والمبين عنه سبحانه ما أراد.

ولا تسل عما أعطاه الله من قدرة على مخاطبة الناس على قدر عقولهم، سواء أكان المخاطب فرداً، أم جماعة، أم واحداً من تلك الوفود التي كانت تفد عليه، فكما أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ووسع لهجات العرب في معهوداتها بالخطاب، شاء العزيز الحكيم سبحانه، أن يكون المبين للكتاب المعجز على أهلية لهذا البيان، وتبليغ الناس على اختلاف أحوالهم وشؤونهم وظروفهم ما به يدخل إلى نفوسهم، ويوصل الدعوة إلى قلوبهم وعقولهم.. وهذا في كل من أكرمه الله بالهداية وشرح صدره للإسلام، أما أولئك الذين اختاروا طريق الضلالة والصدود عن الحق: فلهم شأن آخر. فلقد حرجت صدورهم بالخير، وعموا وصموا عن كلمة الهدى وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وليس من مكرر القول أن نستذكر ـ ونحن نذكر إمام الدعاة ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من أعظم ما تميز به طريقه في الدعوة، أنه كان يدعو ويبلغ ويربي من يدعوهم على المنهج الذي يدعوهم إليه، فلم تكن القضية بالنسبة إليه قضية تعليم مجرد للكتاب والحكمة، ولكنه التعليم الذي تنضم إليه التزكية وتربية النفوس، لتكون الاستجابة وجوداً جديداً لأمة الاستجابة حتى ترى أن معنى إبلاغ الدعوة بناء هذا الوجود.. وهكذا بني الإنسان الجديد على هذه الدعوة، فكانت الأسرة، وكان المجتمع، وكل أولئك صورة البنية الجديدة التي أرادها رسول الله لهذه الأمة.

أن تدعو الإنسان إلى الإسلام، وتتركه يهيم على وجهه هنا وهناك، وتنتابه الأفكار النابية الجافية: شيء.. وأن تدعوه وتعمل على تربيته وتكوينه على ما تدعوه إليه: شيء آخر.

إن الطريقة الثانية هي الطريقة المثلى التي سلكها رسول الله، وكانت ديدن رجاله وتلاميذه من الدعاة.. حتى كان ـ كما ذكرت ـ ذلك الوجود الحقيقي للدعوة فكراً وتصوراً واعتقاداً وممارسة لشؤون الحياة وقوة دافعة للمجتمع. وكل ذلك هو الذي وضع الأمة في موقعها اللائق من البناء الحضاري الذي كان أفضل معلم من معالم هداية الإنسان، في رحلة كادت تشفي على ألف وأربعمئة عام من الزمان.

وهذا لا يعني التحلل من عهدة الدعوة إذا لم تتيسر الطريقة الثانية، بل إن الوجوب قائم، والعهدة في الأعناق ثابتة ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾. ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾. وقد أثبت القرآن أن عنوان الاتباع الصادق لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الدعوة إلى الله على بصيرة ـ ومدلول البصيرة متسع عريض ـ حيث نقرأ في هذا الكتاب الكريم: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

واليوم والمسلمون على عتبة إصاخة جديدة لنداء الحق، واستشراف إلى ما به يستأنفون طريق العودة إلى الله، ليخلصوا من أوضار ما حاق بهم من الأذى عبر السنين الأخيرة من تاريخهم الحديث، وليسلم لهم تكامل البناء

على أسس سليمة في ظلال المنهج الرباني . . اليوم والمسلمون على هذه الحال مدعوون إلى أن يضعوا نصب أعينهم هدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شؤون الدعوة، على مراعاة للسبل المناسبة وفق سنن الله، واللغة المناسبة، والإفادة من معطيات العلم والتجربة، ومراعاة كل ما يلزم الداعية في نفسه وفكره وقدرته على ما يعهد إليه من عمل، فيكون الداعية بالتبليغ والسلوك والقدوة.

غير أن الذي لا يغني عنه الإشارة والإلماح: أنه مهما اتخذت الوسائل الظاهرة للدعوة، وروعيت طبيعة الأرض والمناخ والظروف، واستخدمت معطيات التاريخ، وتجارب الأيام. . فلن يعطي ذلك ثمرته أو يعمل عمله ما لم تتوافر للداعية اللوعة الصادقة، والحرقة التي لا تدانى، على هذا الإسلام ودعوته، بحيث يكون أولئك الرواد على حال تتجافى فيها جنوبهم عن المضاجع، ونفوسهم عن لذائذ الدنيا وشهواتها، لوعة على كلمة الله أن تتحقق في هذه الأرض، وحرقة على هذا الإنسان أن يستنقذ من وهدته فتتحقق إنسانيته بهذا الإسلام.

وكما جاء في المثل العربي: «ليس النائحة كالثكلى». إن المرأة المأجورة لتنوح ـ صنع الجاهلية ـ ليست كتلك المرأة الثكلى التي لوعها الأسى واصطلت بنار افتقادها لولدها، وأخذ الحزن من قلبها كل مأخذ. . فشتان شتان بين الداعية إلى الله، يدعو على بصيرة ليرضى الله عنه وبين المحترف المأجور، الذي يقول ما لا يفعل. . الحياة هناك. . والموت هنا.

ألا إن الدعوة ليست صناعة، وليست كلمات تتردد على الألسن، أو تسطر على الورق بلا حياة. . وإنما هي ـ مع المعرفة والاستنارة والأخذ بالأسباب ـ: صدق مع الله، وحرص على هداية الآخرين، وتقلب على الجمر، صورة عن الألم لما وصلت إليه حال المسلمين، والثقة بنصر الله تبارك وتعالى إن نحن نصرناه وأسلمنا وجوهنا صادقين إليه.

والله المسؤول أن يربط على قلوبنا ويثبت أقدامنا، ويجعل أسبابنا موصولة بحبله المتين لا نغير ولا نبدل، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو المحمود على كل حال.

ولكن الله ألّف بينهم(*)

في حديثي إلى الإخوة القراء في العدد الأسبق ألمحت إلماحة لم يتسع حجمها - إلى أن من أهم ما كان يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على طريق الدعوة، أنه كان يبلغ الناس ما يوحى إليه، ويعلمهم حقائق الدين، ويربيهم على ذلك، وكان من عناصر هذه التربية ما كان من إمامته - عليه الصلاة والسلام - في تطبيق ما يدعو إليه الناس. . فكان هذا التكامل تبليغاً وتربية، بحيث يصاغ المسلم على أنه هو الصورة العملية المتحركة لما دعاه إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

والحاجة اليوم ملحة إلى أن نكون على خط المتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في شأن أسلوب الدعوة. . فتعليم حقائق الإسلام واجب لا مناص منه. . لكن صياغة المسلم لابد أن يجتمع لها التعلم مع التربية، والتزكية. . والعلم بالإسلام قد يشترك فيه المسلم مع غير المسلم أحياناً، ولكن تطويع السلوك لما عرف المسلم عن دينه، هو المأمول دائماً في هذا السبيل. . وهو العنوان الحقيقي لصدق الإيمان؛ فالإيمان قول وعمل، ويزيد بالاستقامة والتقوى، وينقص بالمخالفة والانحراف!!

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثالث، السنة الثامنة عشرة، جمادى الأولى ١٣٩٧هـ، أيار ١٩٧٧م.

ولعلنا لا نبتعد عن التحويم حول هذه النقطة، إذا قلنا: إن التربية على حقائق الإسلام تعني ـ فيما تعني ـ أن يكون للمسلم طريقة في التفكير على النسق الذي حملته إليه الدعوة، وهذا أمر بالغ الخطورة في عصر أصبحت سمته المميزة الصراع الفكري.. فعندما تبلَّغ حقائق الإسلام، ويربى عليها المدعوون تربية صحيحة سليمة: يستقيم لهم السلوك وتستقيم لهم طريقة التفكير الذاتية التي تنبع من تلك الحقائق، وعندها يسلم التصور ويحس الإنسان المسلم بوجوده وذاتيته.. لأنه يمارس الحياة وشؤونها في ساحة العقيدة والفكر، وفي ساحة العمل والسلوك، ضمن مخطط واضح المعالم.. متصل الأسباب بالمنهج الرباني، والحمد لله. ويحس إحساساً عميقاً بأن وجوده الذاتي يكمن في تحقيق هذا المنهج.

وليس من الإغراب في شيء أيضاً: أن نقرر بأن أولئك الصفوة الذين دعاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإسلام وزكى نفوسهم ورباهم عليه.. عندما خرجوا إلى الدنيا يبلغون الدعوة حملوا أول ما حملوا طريقة تفكير جديدة تنبع من العقيدة وتمتد فروعها إلى كل جنبات الحياة.. تعطى من خلالها القيم، وتوزن بموازينها الأمور.

وتنظر من الجهة المقابلة إلى واقع المسلمين اليوم، لنجد أن تمزق الصفوف هو من داخل النفس قبل أن يكون من خارجها، لأن ليالي سوداء قد حملت المطارق الكافرة لتهدم ما بين المسلم والمسلم من أواصر الترابط.. والقيم التي على أساسها وتحت رايتها خرج العرب من الجزيرة، وبلغوا الدنيا دعوة الإسلام. واستطاع رجال هذه الدعوة في كل صقع خفقت عليه راية

الإسلام، أن يثبتوا - وبجدارة - صلاحية هذا الدين لسعادة الدنيا والآخرة في كل ميدان من ميادين الحياة، سواء منها التشريعي، أو الأخلاقي والسلوكي. وثروتنا في ذلك من الوقائع والكتب خير شاهد لما نقول.

ولقد مرت بهذه الأمة نكبات تزول لها الجبال الرواسي، ثم كانت النجاة - بعون الله - من طريق ذلك الإطار الذي كان يلف المسلمين هنا وهناك؛ عقيدة وطريقة تفكير وقاعدة حكم على الوقائع.. ومعركة عين جالوت وأمثالها شاهد صدق لهذا الذي نقول.. حيث قال الإسلام كلمته للغزاة، وكان المسلمون عند الذي أراده الإسلام.

وإذا وليت وجهك شطر الحروب الصليبية وما كان من ويلاتها سواء من حيث البواعث والغايات، أو من حيث الرجال الذين قدموا حاقدين تحت رايتها.. إذا وليت وجهك كذلك.. وكانت الصورة المحزنة ماثلة أمام عينيك من تمزق الحكام وتفرقهم وكثرتهم هنا وهناك.. رأيت العجب العجاب؛ لقد تحرك نور الدين الزنكي ثم صلاح الدين - رحمهما الله - ضمن ذلك الإطار من طريقة التفكير، واستطاع صلاح الدين أن يجمع المسلمين ويقودهم بإسلامهم.. فكان ما كان من النتائج الطيبة والثمرات، والحمد لله، واستبان لكل منصف: أن الاختلاف في قمة الهرم، لا يمنع القاعدة من التحرك والنصر، إذا كانت ما تزال على المورد العذب من حقائق الإسلام.

بل إن أحفاد الغزاة التتار ممن دمروا وفتكوا بديار العالم الإسلامي انهزموا أمام الفكر الإسلامي. وحولتهم العقيدة تحويلاً جديداً بدَّل معالم الشخصية وقيمها.. فكان أن حكموا الهند بالإسلام بضعة قرون.

من أجل ذلك كان حرص العلماء العاملين على أن تكون هذه الحقيقة ماثلة للعيان مضيئة في كل قلب. . أن يجتمع المسلمون على طريقة نورانية يفسرون في ضوئها التاريخ، ويحللون الوقائع، وتكون هي ضابط التصرف والسلوك. . وعندها يكون العطاء حيث الحاجة إلى العطاء. . ويكون الانتماء حيث بذل المهج والدم. . يدركون الغاية التي يتحركون بإخلاص وعزيمة من أجل تحقيقها، ويكشفون الزيف مهما لبِّس وشبِّه عليهم فيه. . ومهما تكن الحيل في طريقة عرضه ومحاولة الإقناع بزخرفه. . فهو كله زخرف وغرور.

ولا عجب بعد هذا أن نرى واحداً من كبار المفسرين المغاربة هو ابن عطية ـ رحمه الله ـ. . يفهم من قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ**﴾ أن الأمر أوسع مما قد يتبادر إلى الذهن من ظاهر الآية. . فلا أحد أظلم ممن يقف في وجه الدعوة إلى الله، ويعمل على إبعاد الناس عن الإسلام بوسيلة ما. . أو وسائل. . سواء أكان ذلك في المسجد أو في غيره. . فما معنى أن نبني المسجد ونربي الأجيال على البعد عنه. . ذلكم هو مدلول الأظلمية لمنع ذكر اسم الله في المساجد ـ وهذا يشمل العبادة والعلم والتربية عند ابن عطية ـ رحمه الله ـ. . وهذه في نظرنا ضمانة أيُّ ضمانة لأن يظل المسلمون على صلة بأسباب الخير الذي أتاهم به محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. . وضمانة أيُّ ضمانة. . لأن يكونوا على طريقة في التفكير تعصمهم إذا حزب الأمر من الفرقة، وتجمع كلمتهم بعد شتات.

ولقد كانت تجربة أمتنا في هذا المضمار مُرَّة قاسية، ولكنها تعذب لو أفدنا منها وكنا عقلاء في تفسير التاريخ والحكم على وقائع التاريخ.

إن هذه الأمة تعلم الراية التي جمعتها في أكرم حقبة من حقب التاريخ، تعلم كيف كانت حالها قبل هذا.. وكيف حالها اليوم وهي تمر بشيء من الجفوة لتلك الراية.. والكيِّس من أفاد من العلم وحركته مواطن الاعتبار.

ألا ما أكرمه موقفاً أن يدرك المتنورون من أبناء هذه الأمة الماجدة أن اليقظة الحقيقية تكمن في الالتفاف حول الراية التي جمع الله هذه الأمة في ظلها.. وأن تدرك أن الدعوة إلى تمزيق هذه الراية.. والتجني على كل المفهومات من حولها.. تنفيذ لما يريده أعداء الله والإنسان.. إن المحاولة الحادة لاقتحام العقبات والسدود قمينة بأن تقفنا الوقفة الواعية التي نستلهم فيها قول الله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا**﴾ وقوله جل وعلا خطاباً لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتنبيها لأبناء الأمة على مدى الحياة واختلاف الظروف: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾. نعم. ولكن الله ألف بينهم بدعوته، وهذه واحدة من معالم طريقة التفكير.

وفي ظلال الخطوة الأولى لرحلة شاقة عسيرة، تحقيقاً لهذا الذي يجب أن يدركه المتنورون والرواد.. نذكر مرة أخرى ضياء المنهج الذي سلكه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتبليغ حقائق الإسلام وتربية النفوس عليها..

وليعلم أولئك الذين أكرمهم الله بالمرابطة على الثغر الذي هو من ميراث النبوة أن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، وأنه مُوَفِّي الصابرين أجرهم بغير حساب..

وفي الأزمات التي تمر بالأمة يظهر الرجال.. وعندها ينحسر أشباه الرجال ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

وعند الابتلاء يتميَّز الصادقون من غير الصادقين ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

الانهدام .. والفكر(*)

في نجوة من العبث العابث، وبعد عن العامية في التفكير، وتحرر من سلطان التفسير المنحرف للأحداث، والتعليل القاصر للوقائع: نستطيع أن نتبين ذلك الفصل الجارح من المأساة العاتية التي يكتب فصولها أعداء أمتنا بدءاً من أوائل هذا القرن، ويتقبلها مغفَّل أو زائغ.. إنه فصل المكر والتزييف وقلب الحقائق.. ذلكم هو صياغة انحسار الإسلام عن طريق المسلمين صياغة فكرية، وتقديم ما وقع من انهدام وانحراف باعد بينها وبين مواردها الأولى: أنه هو الفكر، وعلى أنه هو ما كان يجب أن يكون من قبل أن يقع. فكل ما يعشي البصر، ويقرِّح الأكباد من بعد الشقة بين الأمة وبين أن تكون الشريعة هي المحكَّمة، وبين أن تكون الفيئة إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما جرى عليه الراشدون: هي المعتصم عندما تطل الفتنة برأسها، ويضرب الظلام بجرانه على الطريق..

كل هذا وغيره كثير.. يتمثل أول ما يتمثل بتلك الإجهاضة الفكرية المبتغاة، والتي ترى أن هذا ما كان واجباً أن يكون.. وأن بمقدار وعيه وفهمه وتبنيه: تكون الأفضلية لصاحبه والسمة البارزة في لونه الثقافي والحضاري المتقدم. وعلى هذا: فبدلاً من أن تحمل أجيال الأمة ـ التي غشيها من آثار النكبات ما غشيها ـ الفكر الأصيل النابع من العقيدة.. الذي يدعو إلى

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الرابع، السنة الثامنة عشرة، جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ، حزيران ١٩٧٧م.

التغيير والصبر على مسؤولياته وتبعاته، وتجنيد الطاقات في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها، فيقاس الواقع المعوج بمقياس الإسلام فيظهر عوجه . . . بدلاً من ذلك ـ يملأ الفراغ بما يدعى زوراً وبهتاناً الفكر الصحيح، لأنه خلا من معوقات الماضي!! ضمن طريقة التفكير التي يجب أن تكون.

أو لم يكف الأمة ما بها من انحسار ظل الإسلام عن أرضها إلا في القليل النادر. . فمبادئه في واد. . وحياة الأمة في واد على كل صعيد، حتى تعمل الأيدي السبئية، والأفكار السلولية على تكريس هذا الواقع بفكر يؤول بصاحبه إلى الرضى بالهوان بديلاً عن أفكار العزة والبطولة التي تحمله على تغيير الواقع. . وآثار ذلك ظاهرة لكل ذي عينين فيما تعانيه الأمة على صعيد الوطن الكبير من جهة. . وعلى الصعيد الإنساني عموماً، حيث يحال بينها وبين أن تخرج الناس من الظلمات إلى النور بدعوة الحق في متابعة لمنهاج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي أخرج به الناس من الظلمات إلى النور، حيث بُدل الضعف والتبعية، باستخلاف في الأرض وكان الأمن بعد الخوف، ومكّن الله للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم.

أن تتطابق العناوين مع المضمونات: شيء مقبول، بصرف النظر عن قيمة تلك المضمونات. . أما أن يصاغ الانحراف فكراً، ويقدم الزيف على أنه الطريقة المثلى للتفكير. . والحكم على الماضي والحاضر. . فتلك هي الطامَّة الكبرى. . التي من أبسط سماتها إهدار الوجود الإنساني لإنسان هذه الأمة. . والحط من قيمة تاريخه والرسالة التي كانت قاعدة انطلاقة هذا

التاريخ . . ثم التهوين من شأن أولئك الذين صنعوا التاريخ بدمائهم وفكرهم وعطائهم في المنشط والمكره .

وحين تضرب هذه المشكلة بكلكها على هذا الإنسان . . فلن يكون قادراً على صناعة التاريخ من جديد ؛ لأنه سلك به الطريق التي تؤدي به إلى مستنقع التبعية والهوان ، فيهون على نفسه ، ويكون ذلك نواة أن تهون الأمة على نفسها . . فلا تتعلق بماض تسلمت به قيادة العالم . . ولا تحس بواقع يسلمها إلى الضياع .

ولكن هل هذا هو الفصل الأخير من المأساة؟ ترى هل هي النهاية وللأجيال بعد ذلك أن تقول كلمتها؟ لا أحسب ذلك ! ! إن لهذا الذي نصف من شأنه ذيولاً ولواحق تراها في بعض ما يكتب عن الإسلام من هنا وهناك ، ويجري بأقلام من تُميلهم طبيعة المرحلة إلى الكتابة عن الإسلام بعد أن أفلست الأفكار المطروحة على الصعيدين العربي والإسلامي عموماً . . فهذا يُنصِّب نفسه وصياً على الفكر الإسلامي دون أصول أو قاعدة مرتبطة بتلك الأصول ، ناهيك عن صدق اللهجة واللوعة الصادقة في هذا المضمار . . وذاك يهرف بما لا يعرف ويردّد دون وعي ما قاله أعداء الأمة في الخارج والداخل . . ويريد منك أن تحمل ما يقول على أنه هو الإسلام وأنه الفكر الإسلامي الأصيل . . ولا يني يحاورك ذات اليمين وذات الشمال بغية التشكك فيما قاله ويقوله أبناء هذا الفكر الذين عرفوه وقدموه دراسة وعقيدة وجهاداً . . في حركية لا تعدل بمرضاة الله دنيا مؤثرة ، ولا غرضاً قريباً مما يلهث وراءه اللاهثون على اختلاف مواقعهم وعناوينهم . .

والحديث في حقيقته هو على غاية الأهمية؛ بدءاً من واقع هذه الأمة فيما تعانيه من داخل الأنفس ومن الخارج هنا وهناك.. والمعتصم ـ والله أعلم ـ أن تعمل الأيدي الأمينة والريادة الواعية على أن يتصل الجيل بحقائق الإسلام من منابعها الصافية، وأن تعاد أواصر الانتماء إلى الأصول الأولى إلى جدتها وصلابتها. وهذا لا يعني انغلاقاً عن العالم الخارجي، أو بعداً عن الاطلاع على ما يجب الاطلاع عليه ودراسة ما يجب دراسته. كما لا يعني جفوة لما نسميه العلم التقني؛ فذلك مما لا خلاف عليه من أجل الإعداد الذي أمر الله به من منابعها الصافية، وأن تعاد أواصر الانتماء إلى الأصول الأولى، إلى جدتها وأصالتها باعتزاز، وصدق انتماء، ويكون لفكر المسلم النسغ الذي يتكون من حقائق الإسلام والاعتزاز بالعربية لغة هذه الحقائق كيما تكون له طريقة التفكير المتميزة، التي تحدد غاياته ووسائله ومقاييسه في الحياة، وكيما يكون قادراً على توظيف المعرفة ـ عموماً ـ على طريق الغاية التي من أجلها يعمل، والتي يحدّدها مساره الفكري الأصيل.

ولا بد بعد ذلك كله: أن يقاس إخلاصنا في بناء الجيل بمقياس حرصنا على ربطه بالأصول الأولى والعمل على أن يكون صادق النسب إلى حقائق رسالته العظيمة التي كنا بها خير أمة أخرجت للناس.. والتي نعاني من جفوتها اليوم ما نعاني.. وفي التعريف ببعضها والإعراض عن بعضها الآخر ما يكفي لإيضاح ما نريد.

وفي تأكيد لهذا الذي ألمح إليه: أود أن أقول: حتى أولئك الذين أكرمهم الله بالتعايش مع الكتاب الإسلامي في فكره العام، لابد لهم من إحكام

الصلة بالأصول الأولى . . لا أقول على مستوى التخصص، ولكن على مستوى القاسم المشترك الذي لابد منه على الأقل، كيما تكون بأيديهم مفاتيح الفهم والوعي لارتباط الفكر العام بتلك الأصول . . في كتاب الله وسنة رسوله ومنابع ثقافتنا على وجه العموم .

ولكم تكون البصيرة نافذة، والإخلاص معلناً، إذا ضممنا إلى التعريف بحقائق الإسلام : تربية الأجيال عليها فهماً وسلوكاً ومراقبة لله عز وجل إذاً لضمنا تحقيق الغايات الكبار دون بهرج أو تزييف .

والمساءة التي لا تغتفر : أن ننزلق مع شياطين الإنس والجن فيما يوحي بعضهم إلى بعض من زخرف القول غروراً مما ألمحنا إليه . . ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

المعجزة .. والأقصى
الإثارة .. والتذكير(*)

هذا هو الزمان قد استدار، وعاد إلى وجودنا المكدود شهر الإسراء والمعراج.. ليلقي بناظريه إلى واقع الأمة في وطنها الكبير بعامة.. وفي المسجد الأقصى والأرض التي باركها الله بخاصة.. عاد شهر الإسراء وقد مضى على ثالث الحرم عشرون عاماً وهو يرسف في القيد ليذكِّر هذه الأمة بحقائق نسيت بعضها وتناست بعضها الآخر، وليعيد تبصيرها بالطريق التي لا مندوحة لها عن سلوكه إن كانت صادقة العزم على التغيير والتحرير.

أتراه عاد لينقلنا ـ على ما يثقلنا من معوقات ـ إلى حيث نتنسَّم عبير الدماء التي روت أرض اليرموك، وننعم بأعراس الشهادة لأولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه تحت راية لا إله إلا الله وفي سبيل إعلاء كلمة الله.. والأهم من هذه الصورة التي تصف واقع البررة الذين خرجوا من الجزيرة حداؤهم الله أكبر، ومرمى بصائرهم جنة عرضها السماوات والأرض.. إن الأهم من هذه الصورة تلك البواعث التي غيرت معالم الشخصية، وتلك القيم التي رافقت كل خطوة خطاها جند الله في كل واد قطعوه، وفي كل موطئ وطئوه.. انعكاس الحداء الكبير.. وحرصاً على تبليغ دعوة الله في الأرض.

أتراه عاد ليصرخ في أعماقنا بالحقيقة التي أصبحنا ـ لما تلبسنا من جفوتها ـ نهاب أن نقرأها.. نهاب أن نذكرها.. أو نذكر بها.. تلك الحقيقة التي مكنت من تحرير الأقصى وبلاد الشام من نير الوثنية وما هو بالوثنية أشبه.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخامس، السنة الثامنة عشرة، رجب ١٣٩٧هـ، تموز ١٩٧٧م.

عقيدة تحرك، وفكر يقود، وغايات كبار تستعلي بصاحبها فوق المعوقات وتمكن له من اقتحام العقبات. . وقيم تحمله على الصراط السوي غير باغ ولا عاد. . وكان الجهاد في خدمة ذلك. . الجهاد بكل مستلزماته من النية الخالصة، والإعداد الصحيح، والبذل غير المحدود. . ذلك البذل الذي كان الجودُ بالنفس من بعض ألوانه، إذا حزب الأمر وبلغت القلوب الحناجر.

كان ذلك حين أشرقت شمس الإسلام على هذه البقاع، وحمل الفتوح كل بذور الخير إلى أرضنا ودخلت مع الجيوش عقيدة التوحيد، والشريعة التي ارتضاها الله ناسخة لما سبقها من الشرائع. . فاستجابت العقيدة لفطرة الإنسان. . واستجابت الشريعة لكل شؤون الحياة في قدرة على تخطي كل الصعاب الموروثة والطارئة. . وولد الإنسان. . بكل تطلعاته للحرية والكرامة وسعادة الدارين.

وتثاءب الزمن متثاقلاً. . وكانت الحروب الصليبية. . ووقع الأقصى وما حوله في الأسر الصليبي، ودام ذلك عشرات السنين. . ثم عملت العقيدة عملها مجدداً. . وأوقد نور الدين الزنكي نار الحمية الإسلامية. . وتجمَّع تحت راية لا إله إلا الله كل أولئك الذين وجدوا في قتال العدو الغاصب أكرم فرصة لبلوغ الشهادة. . وأقرب طريق إلى حياة كريمة عند الله. . وجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

كان حداء الإنقاذ في حطين وأخواتها. . هو نفسه حداء اليرموك وما قبلها وما بعدها. . تغيرت الأيدي ولم تختلف البواعث. . واختلف الزمان

ولم تتبدل الغاية التي من أجلها يبذل المقاتل ما يبذل، ويطلب الموت حيث الفرح بفضل الله سلاح ماض في معركة المصير.

عاد الأحفاد إلى ما كان عليه الأجداد.. وساروا في نفيرهم لتحرير النفوس واستنقاذ الأرض سيرة أولئك البررة الأماجد من تلامذة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.. فخاضوا المعارك بعقيدتهم وطريقتهم في التفكير تحت راية لا إله إلا الله التي كانت ظلهم الظليل.. وموئلهم الباسق المشرق حيث لا موئل لأولئك الذين يدعون بدعوى الجاهلية.. خاضوها ومقياس التفاضل بين إنسان وآخر: حرارة الإيمان وصدق العقيدة، والإخلاص لله عز وجل.. في تمثل صادق لحقائق الإسلام، خصوصاً على صعيد السلوك.. فلا جاهلية ولا عصبية، ولا قيم غريبة عن طبيعة هذا الدين.. ولا مقاييس تحمل صاحبها على أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

إن أولئك الذين كانوا رهباناً في الليل؛ طاعة لله وتخشعاً بين يديه، وفرساناً في النهار، فيما حملوا بين الضلوع من حب للقتال كما أراد الله، ورغبة في الشهادة.. إن أولئك البررة كانوا في ظاهرهم رجالاً يركبون خيولهم على أرض المعارك.. لكنهم كانوا في حقيقتهم صورة عملية للبناء الإسلامي المبارك للشخصية المسلمة القادرة على التزام حدود الإسلام وعياً وبذلاً وعطاء.. ثم أداء رسالته في العالمين.. كيما يخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار.

هكذا يعود شهر الإسراء والمعراج . . شهر المعجزة التي دلت ـ فيما دلت ـ على صدق الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكانت مواساة له بعد عام الحزن، ومؤشراً واضحاً على ارتباط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى برباط العقيدة التي قام عليها الإسلام، وحراسة كل من هذين البيتين والحفاظ عليهما ـ بما لذلك من دلالات ـ: أمانة في أعناق المسلمين . . لا يتهاون بحملها إلا من سفه نفسه وتولى عن كلمة الله .

هكذا يعود هذا الشهر المبارك، ليذكرنا مكامن القوة التي بها كان الفتوح، وتحت رايتها كان تحرير الأقصى وما حوله من يد الصليبيين . . وأن هذه الجولة التالية بعد الذي حصل وكابدنا من مرارته ونكابد، لا بد أن يكون قوام الحركة فيها على نسب متصل بما كان في الجولتين الأولى والثانية .

من أجل هذا . . يفترض أنَّ ما حصل من الابتلاء في أمر المسجد الأقصى وما حوله أن لا يقهر هذه الأمة، ويعطل حركتها، بل أن يكون حافزاً للعمل والبذل في إطار رسالتها، لأن أمة يحمل تاريخها فتوح الشام وتحرير الديار من أذى الصليبيين تحت راية لا إله إلا الله، لا تنطلق حين تنطلق من فراغ . . ولا تتحرك حين تتحرك من عدم . . فهنالك مبادئ وغايات . . وهنالك قيم غاية في السمو، ومقاييس غاية في الدقة والعمق . . وهنالك بطولات صنعت التاريخ على أساس من هذا الدين القويم . . ولئن كان كل امرئ يريد في صموده للتغيير، وصبره على مناجزة العدو ـ بذلاً وعطاء ـ غاية مقتصرة على هذه الدنيا في الزمان والمكان . . إن المسلم يبتسم للموت ـ وهو صاحب

رسالة ـ ويقدم ما يقدم، وبصره يرنو إلى ما هو وراء هذه الغاية أيضاً، ألا وهو أن يكون بذل روحه وماله وعلمه زلفاه إلى مرضاة الله، وهو في متقلبه ومثواه يردد: «غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه» وإذا أصاب العدو منه مقتلاً رأى في ذلك بوادر الفوز. فقال: «فزت بها ورب الكعبة».

إن هذا المسلم يحقق الغاية التي يبتغيها الآخرون، لكنها غاية على الطريق. أما فيما وراء ذلك: فشوقٌ إلى لقاء الله يشده إلى الصبر شداً مهما بلغت وعورة الطريق مبلغها.. ومهما كان الثمن الذي لابد من نقده في ساحة الفوز الكبير.

أضف إلى ذلك كله: أن للمسلم تاريخاً مع هؤلاء اليهود يرتد ليبدأ من عصر النبوة، بدءاً بكل خلائق اليهود مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومع المسلمين قبل أن يطلع على المدينة فجر الإسلام.. مما حكى القرآن من خصائص هذه الخلائق وسماتها، وجلت السيرة صورها ومظاهرها.. ومروراً بكل ما كان من خيانة وغدر وتآمر، ومعارك خاضوها مع المسلمين، وانتهاءً ـ وتآمرهم لا ينتهي على صعيدي الفكر والسياسة ـ بما كان من أغراض حققوها بهدم آخر معقل من معاقل الدولة الإسلامية في مستهل هذا القرن.. ثم ما نحن فيه من الأذى الذي كان من نتائج هدم ذلك الكيان، حيث لم يكتف الذين ولغوا في الإثم بذلك الهدم.. ولكن صاغوه فكراً قومياً صالحاً ـ على زعمهم ـ يزين للأجيال طريقاً تجعلهم يدورون في حلقة مفرغة ضمن الهوة السحيقة التي صنعها الانهدام.. ذلك أن الأمم التي

تصاب . . تتحرك من خلال فكرها الأصيل، فتنفض عنها غبار الانهزام، وتشق طريقها عبر الظلام مجدداً، فتكون النكبة عامل يقظة وانطلاق فاعلين . . أما أن تنقلب الآية . . فتحمل الأجيال بعد الكوارث فكراً يمكِّن لليل الهزيمة أن يطول . . فذلك هو الموت الزؤام!!

وإذا كان الأمر كذلك . . فإن الأمانة تقتضينا ـ وعجلة التاريخ لا ترحم ـ كلٌّ في موقعه، وما تحت يده من طاقة ممكنة، أن نعمل على إيجاد المسلم الحق، وأن نزيد في إمكاناته وقدراته وكفاءاته . . أن نربيه ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على هذا الإسلام بقيمه ولغته وحقائقه التي عملت عملها على أرض بدر والقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت وغيرها، وغيرها . . أن نصل ـ بكل الوسائل الممكنة ـ ما بينه وبين القرآن الذي أوجد هذه الأمة . . حتى يتعايش بقلبه وعقله ومشاعره مع مبادئه ومنهاجه . . مع حقائقه التي حملها إنسان الجزيرة وقاد بها العالمين . . مع كل المعارك التي تحدث عنها وكشف عن مقدار اتساقها مع المبادئ ـ ما كان من خطأ وما كان من صواب . . ـ مع القيم التي تربط بين الدنيا والآخرة . . ولا تقف بالمؤمن عند حدود الدنيا بأعراضها الفانية . . وإنما تنقله مع الإيمان بالغيب إلى ما وراء هذه الحياة . . من عطاء إلهي في الآخرة . . مع كل عوامل النصر التي قهرت العقبات الداخلية في نفس الإنسان وموروثات الجاهلية . . والعقبات الخارجية التي تبدو على صعيد العمل والجهاد . . نعم . . ومع كل عناصر التربية التي أوجدت إنسان العقيدة والدعوة والفتوح . . أن نصل ما بين المسلم وبين سيرة المصطفى ـ عليه

الصلاة والسلام ـ التي هي أنموذج التطبيق لمبادئ القرآن . . والبرهان العملي على قدرة الإنسان إذا تمت له الصياغة الواعية : أن يحمل تلك المبادئ ويخوض بها ميادين الحياة ، في تطابق بين أهلية الإنسان وبين تلك المبادئ . . أن نصل ما بينه وبين تلك السيرة قلباً وقالباً علماً وعملاً . . وعزماً على حسن التأسي وسلامة الاقتداء ، كيما يصبح هذا المسلم ـ وهو يتجه صوب حقائق الإسلام من مصادره الأولى ـ كأنه جزء عضوي من ذلك النبع الأصيل . . وحين نقول ذلك يكون لزاماً أن يتعاون على هذا الأمر الجلل : التزكية والتربية والتعليم والإعلام وكل وسائل الإعداد التي تكفل نقلة الخير من أجل المعارك الفاصلة في تاريخ أمتنا الحديث . . فهي في الواقع معارك لا معركة واحدة . . وإن غداً لناظره قريب .

وإذا كان الأمر كذلك أيضاً . . فإن سلامة التخطيط والإحصاء ورصد النتائج : تقتضينا أن نقدر العطاء الذي يقدمه المسلم حين نبنيه على هذه الشاكلة . . ونحمله الأمانة في ظل العقيدة . . وننمي في إدراكه وحسه كل بواعث القدرة والعطاء . . بحيث يتحرك بعدها على صعيد الفاعلية والتأثير . . ويكون قادراً على أن يتعامل مع النصوص التي هي قوام عقيدته وقاعدة تاريخه بقلب متفتح وقلب مستنير وبصيرة نافذة . . وذلك في ظل الاستسلام لأمر الله وأمر رسوله . . لا أن يتعامل معها مثقلاً بالمعوقات وعقد النقص والانهزام الداخلي . . والرهبة مما قد يقوله الآخرون .

وإذا كان الأمر كذلك ـ مرة ثالثة ـ فإن هذا المسلم يكون قادراً ـ بعون الله ـ على أن يضع الأمور مواضعها ، وأن يفيد من كل سلاح في مواجهة العدو

بمعرفة وأمانة . . وأن يستنفد كل طاقاته ووقته وجهده في سبيل العمل على أن يأخذ الإعداد ـ بشقيه المعنوي والمادي ـ ساحته المتسعة الواعية في ظل قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ . وقوله وهو القاهر فوق عباده : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

وفي خاتمة المطاف : أترانا نكون على شيء من النباهة والإفادة من التجارب إن نحن غفلنا ـ ونحن في أيام تذكِّرنا بإسراء الله بعبده محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـ عن أن الأعداء الذين يعملون على هدم الإسلام في نفوسنا وإرخاص قيمه ، والتهوين من شأن بناة تاريخه في عقول أبنائنا وبناتنا ، وإظهاره بالمظهر الذي يعكس حقدهم التاريخي . . إنما يريدون أن يسلبونا أمضى سلاح بأيدينا . . وأن يجعلوا الأفئدة هواء تتلقف ما يصنعون . . إنهم يريدون أن يقضوا على تلك الجذوة التي كانت بها معارك بني قريظة وخيبر وبني النضير ، وعلى ضوء نارها كان الفتوح وحمل الدعوة إلى الناس ، وكان استنقاذ البلاد والعباد في ديارنا من أيدي الصليبين . . والله من ورائهم محيط . . ولكن الشقي : كل الشقي ، من كان في غرض أعداء الأمة فيما يهدفون إليه . . وشريكه في الشقوة : من قدر على العمل وقعد مع القاعدين .

إننا مدعوون اليوم في كل بقعة من عالمنا الكبير المثقل بالمصائب والنكبات ، إلى قراءة جديدة لتاريخنا بقيمه التي ارتفعت قواعده عليها . . برجاله الذين صنعوه . . دون تهاون أو عبث . . قراءة واعية نرى من خلالها الوقائع بأعيننا لا بأعين الآخرين . . ونحس بارتباط الوقائع بالعقيدة

وعطائها . . بعقولنا نحن لا بعقول الآخرين . . قراءة شجاعة تباعد بيننا وبين الفرار، حين تضعنا المبادئ أمام ضرورة التضحية وتجاوز الشهوات والقضاء على بواعث الإهمال والاسترخاء . . لأننا كثيراً ما نهاب الحقيقة؛ لأنها تكشف ضعفنا وانحسارنا . . وتضعنا أمام الواجب وجهاً لوجه .

وإننا مدعوون بعد ذلك وعلى القدر نفسه من الأهمية، إلى قراءة جديدة لواقع الأمة دون موارية، من خلال التجربة والحصاد . . التجربة القاسية المرة . . والحصاد الذي يحسه الرواد أشد مرارة وأقسى وأعتى . . ثم المقارنة ورصد النتائج بشجاعة الرجال، والتحرر من سلطان التقليد والببغاوية في الترديد .

لقد يكلفنا ذلك بعض العناء والتعب . . ولكن كل ذلك يهون . . إذا صلحت النية واتضحت الرؤية . . وتوافرت القدرة على النقد الذاتي والاستعلاء على المعوقات الهابطة والأغراض القريبة . . في حرص على صدق الانتماء إلى هذه الأمة . . ذلك الانتماءالذي أثبتت الوقائع عبر تقلبات التاريخ . . أنه في حقيقته ليس لعقة على اللسان . ولا كلمات تلاك في الأفواه متاجرةً ومساومة . . وإنما هو إيمان وعمل وعطاء، وتعلق بأهداب القيم كل القيم التي طرحها الهدي النبوي على طريق الإنسان، وكنا بها ـ على صعيد الفكر والحضارة وسعادة الإنسانية وطمأنينتها ـ خير أمة أخرجت للناس، وكانت الملاذ المنجي في ساعات الشدة والابتلاء، ولهذه القيم مستلزمات . . ومسلتزماتها فهم ووعي وانقياد . . ولها الحق الكبير الكبير . . وحقها التزام واستمساك بعروتها الوثقى التي لا انفصام لها .

ألا ما أكثر ما يهيج شهر الإسراء والمعراج من شجن . . . وما أكثر ما يفتح من منافذ القول . . والكبد مقروحة . . والشدائد تطبق بليلها الأليل كل يوم . . . ولكن التبليغ ـ والحمد لله ـ لون من ألوان الجهاد، ونسأله تعالى أن يجعله بريد العمل ونافذة الوصول إلى حقيقة : أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

والمؤمن أولاً وآخراً لا ينطلق ـ مهما اشتد الكرب وامتدت جولة الباطل ـ من عبث، فهو دائماً منقاد إلى العمل في ظل قول الله تبارك وتعالى : ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ . ولله الأمر من قبلُ ومن بعد، وهو حسبنا ونعم الوكيل .